روبرتس وكتشنر

بطل قندهار وبطل الخرطوم

لهذه الحرب المتأججة نيرانها الآن في جنوبي افريقية بين امّة يخضع لها اربع مئة مليون من النفوس وتعدُّ الاولى بين امم الارض غنًى وعزة وبين جمهوريتين صغيرتين لا يزيد سكانهما الذين يحق لهم حمل السلاح على سبعين ألف نفس اوزارٌ لا تحصى ومضار لا تستقصى يودُّ الذين اوقدوا نارها وازكوا اوارها لو قطعت ايديهم والسنتهم ولم يخطُّوا حرفًا يثير الاحقاد ولا فاهوا بكلمة تدمي المكلوم

ومن غرائب الاتفاق ان الامة الهولندية التي اختيرت عاصمتها لعقد مؤتمر السلم ابناؤها نادوا بهذه الحرب وعليهم وقعت اوزارها فان البوير سكان الترنسفال وولاية اورنج الحرّة من الهولنديين الذين هاجروا الى افريقية الجنوبية واستوطنوها . والامة التي يُنتظر منها توطيد اركان السلم في الدنيا اكثر مما ينتظر من غيرها وقد اشتهرت بحذرها واتقانها اسباب الحروب اشتبكت في هذه الحرب على غير اهبة لها واستخفّت بخصمها فلقيت منهُ الامرّين

ولم تزل الحرب سجالاً بين الفريقين حتى كتابة هذه السطور وهي على شدتها لا تعدُّ شيئًا في عدد قتلاها وجرحاها بالنسبة الى غيرها من الحروب فلم يزد عدد القتلى والجرحى حتى الآن من الفريقين على عشرة آلاف نفس مع ان المعركة الواحدة من الحروب الحديثة يقتل فيها اكثر من عشرة آلاف وكان يقتل في المعركة من الحروب القديمة مئة الف نفس او اكثر كما ترى في وصف واقعة اسوس في الجزء الثاني عشر من المجلد السابق فانهُ قتل فيها من جنود داريوس وحدهُ مئة الف على الاقل

وقد ادركت الامة الانكليزية سوء العقبى عليها اذا عادت من هذه الحرب بالفشل فبعثت اليها اشهر قوادها بطل قندهار وبطل الخرطوم اولها شيخ عرك الدهر وخبر الرجال ودانت لهُ عصاة الهند والافغان والثاني شاب خبر هذا القطر متدرجًا في الادارة والقيادة فوجد منهُ التدبير والدهاء والهمّة والعزيمة

ويمتاز لورد روبرتس على غيره من القوّاد بحبهِ لجنودهِ وحب جنودهِ لهُ وقد اشتهر بذلك من اول ما تولّى قيادة الجنود . قال في وصف حصار دهلي المشهور " واني غير قادر ان اختم وصف هذا الحصار من غير ان اقوم بالشكر الواجب للجنود الذين ساروا من اول الحصار الى آخره سيرًا يفوق كل مدح فانهم لم يملوا قط ولا بدا منهم اقل ضعف في بسالتهم

وقد نازلوا العدو في اثنتين وثلاثين معركة وكان لهم الفوز فيها كلها رغماً عن كل المصاعب. وكثيراً ما كان عدد العدو عشرة اضعاف عددهم وموقعهُ احسن من مواقعهم ومدافعهُ اجود من مدافعهم ولكن كل واحد منهم كان يحارب كأنَّ نتيجة الحرب كلها متوقفة عليهِ وتحشموا المشاق كلها عن رضى وطيب نفس وفي مما لم يعرَّض لهُ جيش آخر منذ سنين كثيرة. وظلوا مرةً ثلاثة ايام نهاراً وليلاً وهم بأسلحتهم يحاربون العدو وشمس الهند تكويهم وفي اشد الحاجة من ماء. ورأوا الكوليرا والزعر والدوسنطاريا تحصد رفاقهم حصداً وفي اقتنك بهم من رصاص الاعداء وشاهدوا الفجدات ترد على عدوهم وهم يقلون عدداً يوماً بعد يوم. ولكن شجاعتهم لم تخنهم قط واخيراً لما قطعوا الرجاء من قدوم المدد ورأوا انهُ اذا كان لا بدَّ من اخذ دهلي وجب عليهم ان ياخذوها حالاً شجعوا عليها بسالة وثقة كأنهم لم يزالوا في بداءة الحرب لا كأنهم حملوا اوزارها ثلاثة اشهر متوالية وخانهم فيها الرجاء وقنطوا من الفجدة. هجموا عليها وهم حفنة صغيرة من الرجال وفي حصن منيع فيهِ ثلاثون الفاً من الابطال المستبسلين وعندهم كل ما يلزم من وسائل الدفاع ففتحوها عنوة وبهم يحق لانكلترا ان تفتخر مدى الادهار"

وقد وقفنا مراراً كثيرة ونحن نترجم هذه السطور كأن صوتاً يرنُّ في آذاننا ويقول على مَ لا تفعل الجنود البريطانية هذا الفعل الآن في جنوبي افريقية فتنقذ المدن المحصورة وتعيد الراية الانكليزية الى مجدها الاول هل البوير الذين يحاربهم الانكليز ابسل من الهنود واميز منهم في الضرب والرماية او هي تصاريف الزمن ترفع اقواماً وتخفض آخرين

واصيب رو برتس برصاصة في ذلك الحصار اصابتهُ في ظهرهِ ولكنها لم تمتهُ لانها اصابت جراب الكبسول اولاً ففي طريح الفراش شهراً من الزمان

وعند الانكليز وسام رفيع الشان تهبهُ الملكة لمن يستقتل لكي ينجي غيرهُ من القتل وهو صليب فكتوريا وقد وهب اللورد رو برتس وساماً مثلهُ وهو سيف بلاد الهند فانهُ هاجم العصاة مرةً وقلَّ جمعهم وجدَّ في اثر الفارين منهم ثم صدر الامر بالرجوع عنهم وبينما هو راجع برجالهِ لقيتهم شرذمة من العصاة فوقفت امامهم واطلقت عليهم الرصاص واصابت واحداً من رفاقهِ فالتفت واذا واحدٌ من العصاة هجم على رجل آخر وكاد يطعنهُ بسكينهِ فهجم عليهِ وضربهُ ضربة اودت بهِ قبل ان تمكن من طعن رفيقهِ ثم التفت واذا اثنان من العصاة خطفا علماً وفرَّا بهِ فجدَّ وراءهما وضرب احدهما فقتلهُ ومدَّ يدهُ ليأخذ العلم منهُ فهجم عليهِ رفيقهُ واطلق عليهِ الرصاص فاخطأهُ فعاد بالعلم ظافراً وجوزي بصليب فكتوريا لانهُ استقتل لكي ينجي واحداً من رفاقهِ و يسترد علم انكلترا وهو غير مندوب

ورب قائل يقول كيف يجازى الناس برسامات الشرفخطى قتل غيره فيجيبهُ رجال الحرب ان الناس في المجتمع الانساني كالاعضاء في جسم الانسان فاذا فسد عضو وخيف ان يفسد غيرهُ و يضرّ الجسم كلهُ بادر الجرّاح الماهر الى بترهِ وجوزي على ذلك احسن جزاء

وعاد من تبديد شمل العصاة واخماد الثورة وقد ذاع اسمهُ وتحدث بهِ الناس ورأى فتاة بيت ايبيا في جوار بيت ابيهِ فاحبها واقترن بها سنة ١٨٥٩ فشاركتهُ في السرّاء والضرّاء واحلها المحل الثالث لما الّف كتابهُ المشهور الذي وصف فيهِ اعمالهُ بالاسهاب مدة احدى واربعين سنة اقامها في بلاد الهند واهداهُ الى الذين يحبهم ويكرمهم فقال في صورة اهدائهِ

اني اهدي هذا الكتاب

الى البلاد التي افتخر بالانتماء اليها

والى الجيش الذي انا مدين لهُ ديناً عظيماً

والى زوجتي

التي لولا مساعدتها ما كان للاحدى والاربعين سنةً ذكرى سعيدة كما لها الآن

واشهر اعمال لورد روبرتس اشتراكهُ في اخماد ثورة الهند وفوزهُ في شراسيا ودخولهُ كابول وذهابهُ الى قندهار .والمعارك التي شهدها وكانت لهُ القيادة فيها تشهد لهُ كلها بعلو الهمة ومضاء العزيمة واصالة الرأي والاستبسال في حب وطنهِ. فلما هاجم افغانستان كان الافغان على مرتفع من الارض يتعذّر البلوغ اليهِ وهم بالعدد الكبير والعدّة الكاملة يفوقونهُ عدداً وعُدّداً فلما رأى انهم امنع من عقاب الجوارق فريقاً من جيشهِ امامهم لاغرائهم وذهب بالفريق الآخر ودار من ورائهم في شعب اكتشفهُ بين الجبال وبينهم فانحن فيهم وتهد لهُ سبيل النصر. ورأى امير افغانستان من ذلك الحين ان عدوهُ قوم عتيد لا يصطلى لهُ بنار ففرّ من وجههِ الى بلاد الروس في تركستان واقام فيها الى ان ادركتهُ الوفاة

ولما انتقض الافغان وذبحوا حامية كابول انتدب اللورد روبرتس للاقتصاص منهم فجمع من تيسر لهُ جمعهُ من الجنود وشنّ الغارة بهم ولقي الافغان امام كابول فمزّق شملهم ودخل المدينة ظافراً

ثم ثارت عليهِ القبائل بقيادة محمد جان وكادت تفتك بهِ فالتفت ورأى مئة الف من الابطال وكلٌ منهم ظمآن الى شرب دمهِ لكنهُ فرّق شملهم وبدّد جموعهم وسار لانقاذ قندهار بثمانية عشر الفاً فانقذها من ايوب خان ولم يقتل من رجالهِ الانكليز والهنود سوى ٢٥ نفساً وغنم كل ما كان مع ايوب خان وبذلك انتهت حروب الافغان

ورب قائل يقول كيف يجازى الناس برسامات الشرفخطى قتل غيره فيجيبهُ رجال الحرب ان الناس في المجتمع الانساني كالاعضاء في جسم الانسان فاذا فسد عضو وخيف ان يفسد غيرهُ و يضرّ الجسم كلهُ بادر الجرّاح الماهر الى بترهِ وجوزي على ذلك احسن جزاء

وعاد من تبديد شمل العصاة واخماد الثورة وقد ذاع اسمهُ وتحدث بهِ الناس ورأى فتاة بيت ايبيا في جوار بيت ابيهِ فاحبها واقترن بها سنة ١٨٥٩ فشاركتهُ في السرّاء والضرّاء واحلها المحل الثالث لما الّف كتابهُ المشهور الذي وصف فيهِ اعمالهُ بالاسهاب مدة احدى واربعين سنة اقامها في بلاد الهند واهداهُ الى الذين يحبهم ويكرمهم فقال في صورة اهدائهِ

اني اهدي هذا الكتاب

الى البلاد التي افتخر بالانتماء اليها

والى الجيش الذي انا مدين لهُ ديناً عظيماً

والى زوجتي

التي لولا مساعدتها ما كان للاحدى والاربعين سنةً ذكرى سعيدة كما لها الآن

واشهر اعمال لورد روبرتس اشتراكهُ في اخماد ثورة الهند وفوزهُ في شراسيا ودخولهُ كابول وذهابهُ الى قندهار .والمعارك التي شهدها وكانت لهُ القيادة فيها تشهد لهُ كلها بعلو الهمة ومضاء العزيمة واصالة الرأي والاستبسال في حب وطنهِ. فلما هاجم افغانستان كان الافغان على مرتفع من الارض يتعذّر البلوغ اليهِ وهم بالعدد الكبير والعدّة الكاملة يفوقونهُ عدداً وعُدّداً فلما رأى انهم امنع من عقاب الجوارق فريقاً من جيشهِ امامهم لاغرائهم وذهب بالفريق الآخر ودار من ورائهم في شعب اكتشفهُ بين الجبال وبينهم فانحن فيهم وتهد لهُ سبيل النصر. ورأى امير افغانستان من ذلك الحين ان عدوهُ قوم عتيد لا يصطلى لهُ بنار ففرّ من وجههِ الى بلاد الروس في تركستان واقام فيها الى ان ادركتهُ الوفاة

ولما انتقض الافغان وذبحوا حامية كابول انتدب اللورد روبرتس للاقتصاص منهم فجمع من تيسر لهُ جمعهُ من الجنود وشنّ الغارة بهم ولقي الافغان امام كابول فمزّق شملهم ودخل المدينة ظافراً

ثم ثارت عليهِ القبائل بقيادة محمد جان وكادت تفتك بهِ فالتفت ورأى مئة الف من الابطال وكلٌ منهم ظمآن الى شرب دمهِ لكنهُ فرّق شملهم وبدّد جموعهم وسار لانقاذ قندهار بثمانية عشر الفاً فانقذها من ايوب خان ولم يقتل من رجالهِ الانكليز والهنود سوى ٢٥ نفساً وغنم كل ما كان مع ايوب خان وبذلك انتهت حروب الافغان

والفيرد كتشنر كهل ولد سنة ١٨٥٠ ودرس الفنون الحربية وحذق بالهندسين الملكيين وجاء قبرص وفلسطين لمساحة الاراضي وتطوّع في الجيش المصري سنة ١٨٨٢ وسار في حملة النيل سنة ١٨٨٤ ونازل عثمان دقنه في واقعة هنكوب سنة ١٨٨٨ فابلى بلاء حسنًا وجُرح بأوّل خلافة الملكة واجوتانت جنرال في الجيش المصري ثم نقل الى نظارة الداخلية فاقام فيها مدة وخلف الجنرال غرنفل باشا سردارًا للجيش المصري . واعماله الاخيرة لا تخفى على احد من القراء فانهُ فتح السودان وحقق جيوش الدراويش بالحزم والتدبير ولم يُقتَل من رجاله الاَّ ما يقتل عادةً في معركة صغيرة وهذا هو الفوز المبين

وهذان البطلان يظل قندهار وبطل الخرطوم يديران الآن رحى الحرب في جنوبي افريقية الاول قائد عام والثاني رئيس اركان حربهِ وتحتهما قوّاد كثيرون من الذين اشتهروا في معارك الشمال مثل بلر وهويت وهنتر ومكدونلد ولكنهم لم يفعلوا في هذه الحرب حتى الآن فعلاً يذكر لهم بالثناء الجميل فهل ضاعت بسالتهم او وقعوا مع عدو ابسل من الصنود والدراويش

وبينما نحن نفكر في حل هذا المشكل لقينا استاذًا كبيرًا من اساتذة مدرسة كمبردج الجامعة زار القطر المصري وتكرّم بزيارتنا فدار الحديث على حرب الترنسفال وبسالة البوير فعلمنا منهُ ان القوم فوق ما يتصفهم الواصفون قال "انهُ منذ اربع عشرة سنة الى الآن تعلَّم منهم في مدارسنا الجامعة اكثر من مئة شاب وهم اذكياء العقول شديدو الغيرة والحمية كانوا يقنصون في النوادي والولائم و يعربون عن حبهم لوطنهم ويجاهرون بان جنوبي افريقية للبوير لا لغيرهم وان الغزلاء فيهِ يجب ان ينضموا اليهم و يمتزجوا بهم ليكون البوير بمثابة الشجرة الاصلية وهؤلاء الدخلاء اغصانًا مطعمة فيها . وقد عاد هؤلاء الشبان الى بلادهم وصدورهم مملوّة بالعلوم الاوربية والمعارف العصرية وهم يديرون شؤونها الآن ووزير الداخلية منهم . هذا عدا من جاءهم من القوّاد الاوربيين والحرب قيادة وتدبير . ولقد ضاق الاميركيون ذرعًا بحفنة من الرجال في فيلبين والهولنديون بقبيلة صغيرة في جاوي فلا عجب اذا ضقنا ذرعًا بالبوير وهم على تمام الاستعداد لهذه الحرب وفي بلادهم من الحصون الطبيعيَّة ما لا مثيل لهُ في بلاد اخرى . ولقد كانوا يحسبون انهم يفتحون لادي سميث حالاً و يصلون الى مدن الساحل فتخضع بلاد الزولو لهم في شهر من الزمان قبل ان يصل المدد الى حاميتها فاحبطنا مسعاهم وارسلنا من المدد مالا يستطيع غيرنا ارسالهُ في هذه المدة الوجيزة من الزمن وسنضمُّ كل بلاد البوير الى بلادنا ولكننا نتركها تحكم نفسها بنفسها مثل استراليا وكندا فلا يندم البوير اخيرًا بل يرون ان الغاية التي يقصدونها نالوها ولو على اسلوب آخر" ولا يبعد ان تتحقق هذه الاماني في المستقبل القريب